التداولية و صيغ الخطاب من اللغة إلى الفعل التواصلي

د/ قادري عليمة
جامعة- قسنطينة -

تدل نظريات الخطاب على تطور الدراسات المعاصرة التي لم تعد نموذجا مستقلا أو منغلقا على نفسه و إنما أصبحت لها علاقة بعدة حقول معرفية متشعبة و مرتبطة في الوقت نفسه، كما أنها أصبحت تعد من النماذج الدالة و الواعدة، فلم تعد لها حدود تفصلها عن الدوائر المعرفية المتباينة.

أدى تواجد هذه العلاقات المتعددة و المتباينة إلى اعتبار تحليل الخطاب نقطة التقاء و تقاطع عدة معارف و علوم تهدف كلها إلى تطوير العلم ليس في مجال تحليل الخطاب الأدبي فقط و إنما في جميع مجالات العلم الإنساني لما تشهده تطورات تكنولوجية في ميادين الإتصالات بجميع أنواعها.

يقول جابر عصفور: "فخطاب الخطاب يجمع في نسيجه العلائقي ما يصله بدوائر علوم اللغة و الإجتماع و السياسة و الفلسفة و التاريخ و الأدب و الإحصاء و الرياضيات فضلا عن علوم الإعلام و وسائل الإتصال و الدراسات الثقافية و الأدبية و غيرها"[1].

و على هذا الأساس اكتسبت كلمة "خطاب" عدة دلالات لها علاقة بما يدور في المشهد الثقافي المعاصر و ما يحتوي عليه من مميزات على عدة مستويات. كما أن هذه الكلمة (خطاب) "أصبحت متداولة بكثرة في الأوساط الثقافية العربية و تؤدي معاني لم تكن معروفة في اللغة العربية رغم أنها كلمة قديمة"[2] لكن الإهتمام المتزايد جعلها مصطلحا مهما يندرج ضمن فئة المصطلحات المعربة أو الدخيلة و التي "تشير حقولها الدلالية إلى

[1] جابر عصفور: "المعرفة البينة" آفاق العصر ص33.
[2] جابر عصفور: "خطاب الخطاب" آفاق العصر ص47.

معان وافدة ليست من قبيل الإنبثاق الذاتي في الثقافة العربية"[3] لذا اعتبر مصطلح الخطاب ترجمة أو تعريبا لمصطلح (discourse) في الإنجليزية و (diskurs) في الألمانية...

اكتسب مصطلح "خطاب" عدة دلالات في اللغات الأوروبية تحيل إلى عدة مصطلحات كما أنها تتداخل مع بعض المفاهيم التي تقاربها في الوظيفة مثل الكتابة و العمل الأدبي و القراءة و النص وهذا الأخير يعد أكثر تداخلا مع الخطاب إذ أن الكثيرين من النقاد لا يفرقون بينهما.

فقد رأى قريماس (A-J- Greimas) و كورتاس (J- Courtès): أن النص يرتبط بالكتابي (التشكيلي) و الخطاب بالشفوي (الصوتي) حيث يقولان: إن النص بوصفه ملفوظا فهو يتعارض مع الخطاب و ذلك تبعا لمضمون التعبير – غرافيكي (تشكيلي) أو صوتي – المستعمل بغرض إظهار الإجراء اللساني. و حسب بعض علماء اللسانيات مثل رومان ياكيسون (R. Jakobson) فإن التعبير الشفوي، و بالتالي الخطاب هو الحدث الأول للكتابة التي تصبح مجرد مشتق و ترجمة للتجلي الشفوي"[4].

إلا أن قريماس يضيف ملاحظة هامة و هي التداخل بين المفهومين أي النص و الخطاب، فيقول: "إن كلمة نص غالبا ما تأتي مرادفة لكلمة خطاب خاصة أثناء التفسير المفهومي في اللغات الطبيعية التي لا تمتلك مقابلا لكلمة الخطاب (الفرنسية و الإنجليزية مثلا)، و في هذه الحال، فإن السيميائيات النصية لا تختلف في الأصل مع سيميائيات الخطاب"[5].

كما يميز فان دايك (Van Dijk) تمييزا دقيقا بين النص و الخطاب فيقول: "إن الخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية و نتيجتها الملموسة، أما "النص" فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب، و بتعبير آخر، فإن الخطاب ملفوظ (أو تلفظ) ذو طبيعة شفوية لها خصائص نصية بينما النص هو الشيء المجرد و الإفتراضي الناتج عن لغتنا العلمية"[6].

أما محمد عابد الجابري فهو يرى أن النص و الخطاب لهما مفهوم واحد يقول: النص رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب...الخطاب باعتباره مقول الكاتب... فهو بناء من

[3] نفسه.

[4] Greimas (A-J) et Courtès (J) : Sémiotique. Dictionnaire p389

[5] Op. cit p390

[6] Van Dijk (J.A) « Texte » in dictionnaire des littératures p2282

الأفكار... يحمل وجهة نظر... فالخطاب من هذه الزاوية يعبر عن فكرة صاحبه فهو يعكس أيضا مدى قدرته على البناء"[7].

و هناك مصطلحات كثيرة تحيل إليها كلمة "خطاب" في اللغات الأوربيبية "كالعرض و السرد و الخطبة الطويلة... ثم الموعظة و الخطبة المنمقة، و المحاضرة و المعالجة البحثية، و أخيرا اللغة من حيث هي أفعال أدائية لفاعلين أو ممارسة إجتماعية لذوات تمارس الفعل الإجتماعي و تنفعل به بواسطة اللغة"[8] و منها العمل الأدبي كمفهوم يلتقي في الدلالة بالنص و يزاحمه.

و نجد جيرار جنيت في تعريفه للبويطيقا يؤكد أنها "النظرية العامة للأشكال الأدبية"[9] فالشكل الأدبي ما هو "إلا الخصائص النوعية للأدب، و هذه الخصائص لا يمكن البحث عنها إلا من خلال الخطاب"[10]

كما أن تودوروف يقول: "ليس العمل الأدبي في ذاته موضوع البويطيقا: إن ما تبحث عنه البويطيقا هو خصائص هذا الكتاب الخاص الذي هو الخطاب الأدبي"[11] كما يؤكد على "ضرورة إدخال مفهوم أجناسي (générique) هو الخطاب "و يدعو إلى إستعمال الخطاب الأدبي محل الأدب أو العمل الأدبي، و ذلك لإعتبارات من بينها أن هناك علاقات بين الخطابات سواء كانت أدبية أو غير أدبية"[12].

يعتمد جينيت و تودوروف في تعريفهما للخطاب الحكائي على آراء بنفست (Benveniste) كباحث لساني لتطبيقها على مفهوم البويطيقا. و مهما تضاربت الآراء و اختلفت في تحديد موضوع الخطاب، فإن جل التيارات تتفق على الدلالة المشتركة للفعل اللغوي و أهميته في أداء أغراض اجتماعية و مؤسساتية تتعدى الجملة، فأصبح الخطاب من القضايا الأساسية التي تهم اللسانيات في عصرنا، "فكان للنجاح الباهر الذي حققته اللسانيات في دراستها للغة أثره البالغ في حقل الدراسات الأدبية و الاجتماعية بصفة

[7] محمد عابد الجابري: تحليل الخطاب العربي المعاصر ص8
[8] جابر عصفور: خطاب الخطاب – آفاق العصر ص47
[9] Genette (G) : Figures III pp10-11
[10] Op. cit
[11] Todorov (T) Poétique pp 10-11
[12] Op. cit

عامة"[13] و الخطاب لا يتعدى "في كل اتجاهات فهمه للغة في حالة فعل و من حيث ممارسة تقتضي فاعلا و تؤدي من الوظائف ما يقترن بتأكيد بأدوار اجتماعية معرفية بعينها يحقق ما يسميه فان دايك بالإنسجام (la cohésion). هذا المفهوم "أخذه فان دايك من أصحاب الإتجاه المعروف بالنحو الوظيفي عند هاليداي و رقية حسن... هذه الخاصية التي يطلق عليها العلماء البريطانيون إسم النصية
(La texture) "[14] و يقترب مفهوم الإنسجام من مفهوم البنية و "يعتبر في هذا السياق الضامن الأساسي لمفهوم النص و هو ما يفرقه عن المتتاليات الجملية التي تفتقر إلى هذه الخاصية"[15] .

كما نجد رولان بارت عند تعريفه للنص يقول: إن نسيج الكلمات يعني تركيب النص... إنه نسيج من الكلمات، و مجموعة نغمية و جسم لغوي"[16] و يوضح هذا المفهوم في إطار السيميائيات قائلا: "إن النص نسيج من الدوال التي تكون العمل، لأن النص يتساوى مع اللغة ذاتها"[17].

استفادت الدراسات الأدبية من البحوث اللسانية و النتائج التي توصلت إليها و المنهجية التي اتبعتها، و يتجلى هذا خاصة في سيطرة المصطلحات اللسانية في الدراسات الأدبية مما فرض "منذ الشكلانيين الروس... تلازما وثيقا بين اللسانيات و الأدب"[18] الذين بحثوا في الأدب و نادوا بعلم جديد و هو أدبية الأدب، إذ يقول روما ياكبسون "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب و إنما الأدبية أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا"[19]. حددت هذه البويطيقا الجديدة عند الشكلانيين مفهوم الأدبية، أما البويطيقا المتجددة فضبطت هذا المفهوم الذي أصبح الخطاب الأدبي و ليس الأدب بوجه عام"[20]

[13]سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي ص15
[14]أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي ص87
[15]حسين خمري نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ص51
[16] Barthes (R) : « Théorie du texte in Encyclopaedia Universalis p1013
[17] Barthes (R) : Leçon inaugurale p17
[18]سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي ص14
[19]نفسه ص15
[20]نفسه

ندرك من خلال التعاريف المتعددة أن المشكلة التي لازمت تحديد مفهوم الخطاب هي نفسها بالنسبة لتحليل الخطاب و تحديد موضوعه، و هي مشكلة لازمته منذ البداية و مازالت مرتبطة به إلى أيامنا هذه.

على هذا الأساس نستنتج أن الصعوبات و العراقيل التي يصادفها الباحث في تحليل الخطاب تكمن في تحديد مفهوم "الخطاب في حد ذاته و ارتباطه باللغة و باللسانيات تسبب في تضارب آراء اللسانيين نتيجته تعدد النظريات المختلفة. إذ لم يمنع تطور البحوث اللسانية العديد من اللسانيين من ضرورة الوقوف عند حد الجملة و عدم تجاوزها"[21] بينما يؤكد آخرون على حتمية تخطي هذا الحد لما له من فوائد على تحليل الجملة"[22] أي تجاوز الجملة كوحدة صغرى .

إن هذا التجاوز للجملة اعتبره بعض اللسانيين من باب الغموض و الإضطراب "و يكمن ذلك بدء من السميات التي تأخذها هذه الوحدة" التي تتجاوز الجملة. فهي عند البعض الملفوظ و عند آخرين "الخطاب"، و عند آخرين النص..."[23]

هذه المصطلحات العديدة تتقابل أحيانا أو تتقارب أحيانا في السياق أو تتباعد أحيانا أخرى إذ تعني دلالة الخطاب، في فعل استخدامه وفق طرق محددة من التعبير لا تسمح بتجاوزها، "فكل خطاب يستلزم حدودا يعينها بالقدر الذي تفرضه هذه الحدود، فعملية إنتاج الخطاب في كل مجتمع، فيما تؤكد تيارات البحث الفرنسية، محكومة مختارة منظمة، موزعة حسب عدد من الأدوار"[24]

اجتهد مثلا جيرار جينت في مقال بعنوان: "حدود الحكي" (Les frontières du récit) في مجلة اتصالات رقم 8 (1966) (Communications N°8/1966) بضبط الحدود بين الحكي (Récit) و الخطاب (discours)، يقول: "لا توجد ماهيات خالصة للحكي و لا للخطاب بل هناك تقريبا دائما نسبة من الحكي في الخطاب كما أن هناك نسبة من الخطاب في الحكي"[25] إضافة إلى هذا التداخل بين الحكي و الخطاب يدرج جنيت عنصرا

[21] سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي ص16
[22] نفسه
[23] نفسه ص16
[24] جابر عصفور: خطاب الخطاب ص48
[25] Genette (G) : Frontières du récit dans communications 8/1966 seuil p161

آخر و هو المتكلم (le locuteur) فيقول: إن إدراج عناصر سردية على مستوى الخطاب لا تكفي لإثرائه لأنها تبقى دائما مربوطة بمرجعية المتكلم (locuteur) الذي هو حاضر ضمنيا و يمكنه أن يتدخل في كل لحظة دون أن يعتبر هذا التدخل دخيلا"[26].

أما لا ينس (J. Lyons) فعند تحديده للوحدات النحوية يثير قضية الملفوظ (Enoncé) كوحدة قابلة للوصف اللساني فيقول: "إن الملفوظ هو جزء من أجزاء الكلام (Partie du discours) يقوم به متكلم، و قبل هذا الجزء و بعده هناك صمت من قبل المتكلم"[27].

كما أن بنفست يرى أن الجملة تخضع لمجموعة من الحدود بما هي أصغر وحدة في الخطاب و تتضمن علامات و ليس علامة واحدة و منها "تدخل إلى مجال آخر لان اللسان أداة للتواصل نعبر عنه بواسطة الخطاب"[28]. الذي يعرفه باعتباره "الملفوظ" منظور إليه من وجهات آليات و عمليات اشتغاله في التواصل[29]... و يعني بذلك الفعل الحيوي لإنتاج ملفوظ ما بواسطة متكلم... هذا الفعل هو عملية التلفظ (Enonciation) و يضيف "أن كل تلفظ يقترض متكلما و مستمعا و الأول هدفه التأثير على الثاني بطريقة ما"[30].

نستخلص أن هذه الوحدة: الملفوظ (Enoncé) لها دلالات و تجليات عديدة قد تتكون من كلمة أو تركيب أو جملة غير كاملة والتي قد تتجاوز الجملة لتصبح خطابا. ففان دايك "يعتبر النص متتالية من الجمل بالدرجة الأولى"[31].

تكاد تتفق الدراسات و النتائج التي توصل إليها الباحثون على أن مصطلح "تحليل الخطاب" يدل على ميدان بحثي تطور في فرنسا ما بين سنتي 1960-1970 بدءا من أعمال عالم اللسانيات الأمريكي هاريس (Z.S Harris) الذي يصفه كالتالي: "يعطي تحليل الخطاب مجموعة من المعلومات عن بنية نص أو نمط من النصوص و عن دور كل عنصر في هذه البنية. فاللسانيات الوصفية لا تصف في الحقيقة إلا دور كل عنصر داخل الجملة التي تحتوي عليه. أما تحليل الخطاب – إضافة إلى هذا – فهو يعلمنا عن

[26] Genette (G) : Frontières du récit dans communications 8/1966 seuil p161
[27] Lyons. J : Linguistique générale p133
[28] Benveniste (E) : Problèmes de linguistique générale pp129-130
[29] Op. cit p241
[30] O.p cit
[31] Van Dijk « Texte » in dictionnaire des littératures p2283

طريقة بنا ء الخطاب لإرضاء كل التخصصات تماما مثلما تؤسس اللسانيات الإستدلالات الدقيقة الخاصة بالطرق التي تبنى بها الأنظمة ذات التخصصات المختلفة"[32]

اهتم هاريس بأصغر وحدة و هي الجملة في تحليله للخطاب أي بمتون قصيرة، و وجود الخطاب يرتبط عنده بنظام متتالية من الجمل تعطينا بنية الملفوظ. بالإضافة إلى هذا عالج "الطرق التي تتكرر بها أجزاء الخطاب داخل المكون الشامل أو تتوزع بها الأجزاء داخل سياق المكونات، و من ثم الكشف عن نمط توزيعي لعلاقات المعاني في الممارسة الخطابية"[33]

بقي تحليل هاريس في حدود اللساني، لأنه عمد في تحليل الخطاب إلى نفس التصور الذي حلل به الجملة في إتباع منهجيته التوزيعية، فالخطاب بالنسبة إليه "ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية و بشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[34] .

يتلخص انشغال اللسانيين بتحليل الخطاب في إتجاهين مختلفين:

الأول: تفسير و تحليل العبارات الدنيا بالنسبة للجملة و خارج الجملة أي الملفوظ (و هو ما اهتم به هاريس)

الثاني: يكمن في تحليل نفسه، فتحليل الخطاب لا يمكن أن يتقلص إلى ملفوظاته، إذ أنه أداة للتواصل، و الجملة تحتوي عدة علامات (بنفنست) Benveniste .

يبقى دور اللسانيات أساسي في تحليل الخطاب رغم أن التوازي بينها و بينه له حدوده، وتطور الدراسات الأدبية يبقى متصلا بعلوم اللسان، لان الخطاب يحتوي على عدة عناصر "كالذكريات الفردية و مقطوعات من الإتصال و المناقشات... و موضوعيته تتلخص في شهادة أو إبداء وجهة نظر"[35] و لهذا فتحليله يتميز بغزارة التوثيق و ظهرت معاجم جديدة مثل:Termes et concepts pour l’analyse du discours من تأليف مجموعة من الباحثين من مدينة مانبولييه الفرنسية ركزوا فيه على النقد المادي لإنتاج

[32] Francine Mazière : L’analyse du discours p3

[33] جابر عصفور: خطاب الخطاب آفاق العصر ص49

[34] Marchand (F) : Les analyses de la langue p116

[35] Mazière (F) : L’analyse du discours p4

المعنى Dictionnaire d'analyse du discours من تأليف مجموعة من الباحثين اهتموا فيه بأهم التيارات النظرية و تناولوا الخطاب كموضوع"[36]

تهدف هذه المعاجم و الدراسات التي أنجزت إلى منح تحليل الخطاب مقولات قارة (Catégories stables) لكن هذا التنوع مع ظهور دراسات عديدة يؤديان إلى التشكيك في صرامة هذه الأعمال و في نفس الوقت توالي الدراسات، ما يدل على أن مجال تحليل الخطاب مازال صعبا.

يتصل تحليل الخطاب بالمجال النوعي لعلوم عدة كالاتصال و التاريخ و علم الإجتماع و علم النفس... و هو كما يقول جابر عصفور "يصل العلم بغيره في شبكة من العلاقات البينية التي يقع فيها في المركز منها"[37] و من هنا يمكن اعتبار هذا الثراء في المفاهيم و الدراسات الناتج عن التفاعل بين العلوم الذي طبع تحليل الخطاب دلالة على الحوار بين العلوم.

أما في مجال اللسانيات، فالنظريات و الممارسات في ميدان تحليل الخطاب تستند إلى التداولية و دراسة النص و تحاول أحيانا أن تخلق مجالا مستقلا بإسم الأجناس الخاصة أو بإسم اللسان الحقيقي (réel) الذي هو معقد عكس لغة اللسان (idéelle) و لكن نجده في أغلب الأحيان يتقلص إلى الدراسات النصية التي تستند إلى التداولية أو الاتصالية كأداة لسانية تجهل رهانات المعنى الذي ينتمي إليها في الحقيقة.

على هذا الأساس فالخطاب "هو وحدة لها مميزاتها الخاصة بها، هذه الأخيرة التي لا تتقلص إلى متون قصيرة (الجمل الملفوظة) التي تتكون منها، فهي تسمح بتأويلات للتراكيب اللسانية عندما لا يمكن إجراؤها على مستوى الخطاب كما تسمح بتأويل مجموع الخطاب"[38] و لهذا نعثر أحيانا على بعض الممارسات التي تهمش تحليل المحتوى و تدرج الخطاب في نطاق الدراسات الشكلية و النحوية و الصرفية...

إن تفاعل تحليل الخطاب مع علوم عديدة كالعلوم الإنسانية و الإجتماعية...، و خاصة اللسانيات أثر على الدراسات الأدبية بهدف تخليص النقد الأدبي من أوهام الإستقلال التام

[36] Op. cit p6

[37] جابر عصفور: دلالات الخطاب آفاق العصر ص55

[38] Reboul (A) et Moeschler (Y) : La pragmatique aujourd'hui p181

بمنهجه و موضوعه"[39] فالنص في حد ذاته يتمتع بمدلول ثقافي يدون و يحفظ، يحرص على تعليمه. و يشترط مؤولا أو مفسرا، و التفسير الذي نحصل عليه يسمى نصا فهو لا يعتبر منغلقا و الإنفتاح من صفاته أي أن النص في حد ذاته يولد نصوصا أخرى ما دام قابلا لتحاليل عديدة و غير متناهية.

"فهو لا يمكنه أن يتصف بالثبات أو ينحصر في مدلول واحد جامد، إنه يتحول في جانب منه إلى شبكة من المستويات المتصارعة داخليا، كما يتحول في جانبه الآخر إلى نص موجود في العالم"[40]. أي بتعبير آخر يصبح كمنتج للثقافة، و لهذا فالدراسات الأدبية أثبتت أن الدعوة إلى استقلال الأدب دعوة لا تقوم على أسس صلبة، و أن تحليل الخطاب الأدبي لا يمكنه أن يستقل عن غيره من مناهج تحليل الخطاب ما ظل الخطاب الأدبي منطويا على خصائص مشتركة يشارك فيها غيره من الخطابات على مستويات الشكل و الوظائف"[41] لأنه في الحقيقة مثلما يذكر جنيت (Genette) أن "الخطاب ليس له أي نقاء يحافظ عليه، فهو الصيغة الطبيعية للكلام الأوسع و الشامل بل بإمكانه أن يستقبل كل الأشكال..."[42]

يستوجب تحليل الخطاب حسب رأي تودوروف "الانطلاق من الخطاب و دراسة فرضيات (virtualités) هذا الخطاب الأدبي التي أصبحت ممكنة، و هكذا تصبح الدراسات الأدبية علما للأدب"[43] لأن الوصول إلى معنى أو وظيفة عنصر من عناصر العمل الأدبي" يعني إمكانية الدخول في علاقة مع العناصر الأخرى للعمل و مع العمل كله"[44]

يقترح تحليل الخطاب تأويلات مبنية على مسلمات اللغة أو اللغات و التاريخ و السياسة... مع مراعاة انسجام الخطاب (Cohésion) لدراسة المعنى و التأثيرات التي تحدثها أثناء العملية الإتصالية لأنه لا يمكن فصل البنية اللسانية للخطاب و ظروف إنتاجه سواء التاريخية و السياسية و لا المقولات الذاتية لأنها تعطينا قواعد قراءتها من أجل تحقيق التأويل.

[39] جابر عصفور: دلالات الخطاب ص55
[40] حسين خمري: نظرية النص من بنيته المعنى إلى السيميائية الدال ص59
[41] جابر عصفور: دلالات الخطاب ص55
[42] Genette (G) : Frontières du récit ^162
[43] Todorov (T) : Les catégories du récit littéraire p125
[44] Op. cit

هناك بعض الدارسين الذين ينطلقون من آراء دي سوسير (De Saussure) و يعتبرون الخطاب من وجهة نظر لسانية شكلية تحقق المعنى بينما نجد آخرين يرفضون هذا الرأي و يهتمون بالإضافة إلى الكلام langage بالمتكلم بالنسبة إلى انتماءاته: إلى فوج أو عمل أو إلتزام... مستعينين بعلم النفس أو علم الإجتماع... التي ابعدت من قبل دي سوسير.

و مهما كان توجه دارسي الخطاب فلا يجب إنكار أن تحليل الخطاب هو إنتاج، أو ملفوظ أو مجموعة ملفوظات المقررة من قبل هؤلاء الدارسين... فهي ليست كأي ملفوظات. و كما يرى لك كوكيه –هي وجهة نظر دارس الخطابات الإجتماعية: أي الفلكلورية و الأسطورية و الأدبية و السياسية... التي تحثه على تشكيل مادة دلالية التي تفلت ظاهريا من كل معرفة (أي تفسير)[45]

كما يشترط كوكيه (Coquet) على محلل الخطاب أن "لا يحاول وصف الخطاب وصفا شكليا... و لكن يجب عليه الاعتماد على جهاز منهجي يمكنه من تأسيس نماذج دلالية"[46] و يضيف "أنه من الأهداف الأساسية لمحلل الخطاب نعني بمصطلح الخطاب كل أداء لنظام لساني و دلالي و هو التعرف على البني العاملية الأولية للخطاب و اقتراح تعاريف دقيقة للعلاقة بين الفاعل و الموضوع[47]

على هذا الأساس لا يمكن اعتبار العلوم اللغوية هي الدائرة المغلقة على تحليل الخطاب أو النقطة الوحيدة التي ينطلق منها ليعود إليها، فهذه الدائرة هي واحدة من بين دوائر عدة في تحليل الخطاب التي تتجاوب مع دوائر كثيرة و تتفاعل معها و لا تقلل من أهميتها التي يؤكد عليها بارت (Barthes) بقوله: إن تحليل الخطاب يجب أن ينطلق من اللسانيات"[48]

هذه التفاعل بين الدوائر "أدى إلى انفتاح أفق تحليل الخطاب الأدبي على غيره من دوائر تحليل الأنواع المغايرة من الخطاب و التفاعل معها في المنطقة البينية من التخصصات"[49] كما يرى محمد عزام أن "دراسة النص تتطلب مساعدة علوم عديدة على رأسها اللسانيات

[45] Coquet (J.C) : Les modalités du discours p66 Langages septembre 1976 N° 43
[46] Opt. cit
[47] Coquet (J.C) : Les modalités du discours p66 Langages septembre 1976 N° 43
[48] Barthes (R) : Introduction à l'analyse structurale des récits – Communications 8 (1966) Seuil p3
[49] جابر عصفور: دلالات الخطاب آفاق العصر ص56

و السيميولوجيا و السيكولوجيا و الكمبيوتر"[50] مما ساعد على القضاء على سلبيات "النقد الجديد" و فكرة الإنغلاق لأن الإنفتاح على تخصصات متعددة يعني "الإنفتاح على الإمكانيات التعبيرية و استثمار إيحاءاتها و دلالاتها و أيضا الانفتاح على نصوص الجنس الأدبي و محاورتها لأننا لا نستطيع أن نعتبر بنية النص بنية مسطحة بل على العكس فهي بنية متعددة المستويات"[51] إلى درجة أن تودوروف يذهب إلى" استحالة تحديد النص الأدبي و الإبقاء على إستقلالية مستوياته"[52] و إذا كان النقد يسعى إلى توضيح و تفسير معنى الأثر الأدبي، "فإن التحليل النصي تعددي ينكر وجود مدلول نهائي، ذلك أن الأثر الأدبي لا ينغلق و لا يتوقف"[53] ما جعل بارت عند تحديده لمفهوم التناص (Intertextualité) يرى "بأنه (النص) عبارة عن نسيج من الإستشهادات"[54] أما كريستيفا فتعتبره "فسيفساء من الإستشهادات (Citations) و تحول النص إلى تناص، فالنص صار حسبها تناصا أي حصولا على نصوص أخرى"[55]

فبينة النص معقدة التركيب و يستحيل إدراكها مرة واحدة، و تمكن الإشارة هنا إلى نوع من مستويات النص و هو الرسائل المتبادلة بين الأشخاص أو الحوارات التي لا تتعدى الدلالة الفعل الاتصالي الذي يصل بين الأفراد و المجموعات بوسائل متعددة من أشكال الأداء الذي تتحول به اللغة إلى فعل تداولي"[56] لأن الخطاب يشتمل "إضافة إلى المقاصد الإبلاغية على مقاصد أخرى إبلاغية عامة على مستوى مجمل الخطاب"[57]

فالنتائج التي يتوصل إليها دارس الخطاب لا تقابل أي شيء إذا كان الإتصال ناجحا إلا مقاصد منتج الخطاب، فأصبح الإتصال من المحاور الأساسية في تحليل الخطاب، فعلى المستوى التداولي يرى بيرس (C.S Peirce) أن الاتصال و التفكير لا يمكنهما أن يتحققا إلا من خلال التفكير و التفكير الوحيد الذي نعرفه هو التفكير من خلال العلامات"[58] و

[50] محمد عزام: النص الغائب ص47
[51] حسين خمري: نظرية النص ص59
[52] Todorov (T) : Poétique de la prose p118
[53]
[54] Kristeva (J) : Sémiotiké : Recherches pour une sémanalyse p14
[55] Op. cit
[56] جابر عصفور: دلالات الخطاب آفاق العصر ص56
[57] Reboul (A) et Moeschler : La pragmatique aujourd'hui p182
[58] Armengaud (F) : La pragmatique p19

عند تحديده لخصائص العلامة يذكر: "أن كل علامة تحيلنا إلى أخرى، و نجد الفكر يحيل إلى فكر آخر هو علامتها المؤولة و يحيل هذا الفكر بدوره إلى فكر آخر يؤول إلى سياق مستمر و غير محدود... فالإنسان نفسه علامة. و حين نفكر فنحن علامة"[59] انطلاقا من انجاز بيرس نفهم اللغة في إطار التواصلية و يصبح المعنى وظيفة استعمال: إذ ندين له بميزتين مهمتين في تحليل اللغة عامة و التحليل الدلالي خاصة.

إن الإهتمام باللغة و أفعالها و إشكالية بنيتها في إستعمالها الاجتماعي " جعل التداولية تلوم البنيوية على إبعادها تقريبا الحديث عن موضوع اللغة و فصلها للكلام عن سياق تلفظه في حين أن التحليل الوافي للبني اللسانية يوضح أن حضورهما ضروري"[60]

أما الفيلسوف الأمريكي شارل موريس يحدد عدة اختصاصات تتناول اللغة من جانب الصرف و الدلالة... أما التداولية فهي التي تتناول حسبه العلاقات بين العلامات و مستعمليها"[61] كما أن أوستين (J.L Austin) عندما حدد مشروعه في محاضرته السابعة (How to do things with words) طور نظرية أفعال الخطاب فميز بين حدث تعبيري (acte locutionnaire) و آخر لا تعبيري (acte illocutionnaire) هذان الفعلان يتميزان إلا اصطلاحا عندما نؤيدهما أنهما صيغتان لحقيقة واحدة و هي الخطاب"[62]

كما يضيف أوستين (Austin) بعض الملاحظات الهامة لتحديد موقع الأدب من وجهة نظر أفعال اللغة، فالبنسبة إليه العمل الأدبي مهما كان روائيا أو شعريا أو مسرحيا يعتبر انزياحا مقارنة بالقوانين الخاصة بالإستعمال العادي للكلام، فيوضح مميزات هذا الإستعمال قائلا: "إن كل تلفظ إنجازي يكون خاويا أو فارغا بطريقة خاصة إذا عبر عنه ممثل في تمثيله أو أدمج في قصيدة، ففي هذه الظروف، فالإستعمال لم يوظف بجدية و لكنه يعتبر إستعمالا دخيلا بالنسبة للإستعمال العادي"[63]

[59] Op. cit
[60] Sarfati (G.Elia) : Précis de pragmatique p6
[61] Reboul (A) et Moescheler : La pragmatique aujourd'hui p26
[62] Récanati (F) : Qu'est ce qu'un acte locutionnaire p190
[63] Sarfati (G.E) : Précis de pragmatique p72

إن هذه النمطية لأفعال اللغة التي اتسمت بها أفعال أوستين (Austin) أعطت دفعا جديدا للغة من خلال وظائفها و من بينها الوظيفة الإتصالية التي أضحت ذات أهمية كبيرة، و في مجال الإنجاز اللغوي فالتداولية تفتح مجالا جديدا يعطي لشكل اللغة أهمية أقل. كما أن الدلالة في اللغة تعتمد على مبدا الاتصال و الحوار بين عدة مستويات و اتجاهات، و تؤسس لإمكان التبادل و الإتصال و بناء على ذلك فإنها تشكل إمكان قيام الحضارة نفسها"[64]

اهتم فريح (Frege) في بحوثه في المنطقيات (logicisme) بالتمييز بين اللغة العلمية التي لا يهمها إلا ما يساعد على تحديد الحقيقة و بين اللغة العادية التي يهمها بالدرجة الأولى إنجاح التواصل"[65] فعلى الرغم من إسهامه في تأسيس الدلالة (La sémantique) إلا أن الدارسين عابوا عليه وجود نقائص مهمة و هي إهماله لجزء مهم من المعنى و هو المعنى الإنفعالي (le sens émotif) الذي يتعارض مع المعنى الإدراكي..."[66]

نستخلص من ذلك أن تحليل الخطاب أصبح احد انشغالات الدارسين التي بدأت في التطور منذ السبعينات من القرن الماضي، فتمايزت الآراء و تعددت المقاربات و وجهات النظر بدء من تحديد المفهوم (مفهوم الخطاب) في حد ذاته، و كل باحث يحاول المساهمة في إثراء هذا المفهوم المتعدد الدلالات التي تتصف بالتعقيد نظرا لتعدد مستوياتها التي تحاول الإفلات من قبضة المحلل فيصعب عليه تحديد موضوعه.

عندما يقدم راستييه (F. Rastier) تصوره في بحث بعنوان "من أجل تحليل الخطاب (Sémantique des isotopies) "يبين في البداية أن اللسانيات تحققت كعلم لنجاحها في تحديد موضوعها و أن على تحليل الخطاب أن يحدد موضوعه و هذه ضرورة تاريخية بسبب علاقته الوطيدة باللسانيات"[67]

مهما كانت التطورات التي طرأت على تحديد مفهوم الخطاب و التقدم الهائل الذي وصل إليه تحليل الخطاب، في الوقت الذي ظهرت فيه اختصاصات أخرى تريد أن تتخذ من

[64] سيزا قاسم و نصر حامد أبو زيد: السيميوطيقا ص185

[65] Armengaud (F) : La pragmatique p23

[66] Op .cit

[67] Rastier(F) : Sémantique des isotopies in Essais de Sémiotique poétique p80

الخطاب موضوعها الرئيسي، و المشكل الذي يلازم الخطاب و تحليله هو إعتبارهما غريبين في حقل اللسانيات و كونهما ينتميان لكل المجالات و التخصصات.

لهذا فإن اعتماد تحليل الخطاب على اللسانيات و محاولة الانطلاق منها للارتقاء إلى تخصص جديد يبقى مرهون بتحديد موضوعه و إستقلاليته لأنه كما يرى جنيت "فإن الكلام لا يمكن أن يحاكي إلا الكلام، و الخطاب لا يمكنه أن يحاكي إلا الخطاب أو بالأحرى فالخطاب لا يمكنه أن يحاكي بدقة إلا الخطاب، أو أن الخطاب يحاكي نفسه"[68] نستخلص في الأخير أنه يجب التركيز على الوظيفة الإيصالية للخطاب و التأكد من معنى الاتصال و محاولة فهم كل ما يدعم الإتصال و التواصل و ما يعوقهما لتحقيق الاهتمام المتواصل بالخطاب الذي يعتبر الحدث الاتصالي للغة في فعل آدائه التداولي.

[68] Genette (G) : Frontières du récit p153 Communications 8/1966 Seuil

المراجع باللغة الأجنبية:

- Armengaud (F) : La pragmatique – Que sais-je ? PUF 1ere édition 1985
- Barthes (R) : Leçon inaugurale : éd. Seuil 1978
- Barthes (R) : Introduction à l'analyse structurale des récits in Communications 8/1966
- Barthes (R) : Théorie du texte in Encyclopédia Universalis
- Benveniste (E) : Problèmes de linguistique générale éd Gallimard T.I 1966
- Coquet (J.C) : Les modalités du discours in Langages-43 septembre 1976. Larousse
- Genette (G) : Figures III Seuil 1972
- Genette (G) : Frontières du récit in Communications 8/1966 Seuil
- Greimas (A.J) et Courtès (J) : Sémiotique : Dictionnaire raisonné des sciences du langage. Hachette
- Kristeva (Y) : Sémiotiké : Recherches pour une sémanalyse Seuil ; 1981
- Lyons (Y) : Linguistique générale-trad. F. Dubois Charlier D/Robinson Larousse 1970
- Marchand (F) et autres : Les analyses de la langue - Delagrave 1978
- Mazière (F) : l'analyse du discours - Que sais-je ? PUF 2005
- Rastier (F) : Sémantique des isotopies in Essai de sémiotique poétique - Larousse 1972
- Reboul (A) et Moeschler (Y) : La pragmatique aujourd'hui : une nouvelle science de la communication Seuil 1998
- Recanati (F) : Qu'est ce qu'un acte locutionnaire ? in communications 32/1980 Seuil
- Sarfati (G.E) : Précis de pragmatique Armand Colin 2005
- Van Dijk (T) : « Texte » in Dictionnaire des littératures de langue française II Bordas Paris 1984

المراجع باللغة العربية:

- أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي – سلسلة البحث السيميائي إفريقيا الشرق – الدار البيضاء 1987
- جابر عصفور: خطاب الخطاب – آفاق العصر – مؤسسة سلطان بن علي العويس لثقافية – دبي الإمارات العربية المتحدة
- جابر عصفور: دلالات الخطاب – آفاق العصر – مؤسسة سلطان بن علي العويس اللقافية – دبي الإمارات العربية المتحدة – دت
- جابر عصفور: المعرفة البينية – آفاق العصر – مؤسسة سلطان بن علي العويس اللقافية – دبي الإمارات العربية المتحدة. دت
- حسين خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال الدار العربية للعلوم ناشرون و منشورات الإختلاف – ط1 – 1987
- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي: الزمن – السرد – التبئير المركز الثقافي العربي ط1 1989
- سيزا قاسم و نصر حامد أبو زيد: السيميوطيقا – دار الياس العصرية القاهرة 1986
- محمد عابد الجابري: تحليل الخطاب العربي المعاصر – دار الطبيعة بيروت 1985
- محمد عزام: النص الغائب: تجليات التناص في الشعر العربي إتحاد الكتاب العرب دمشق 2001